

النوع التاسع والعشرون

فِي بَيَانِ الْمَوْصُولِ لَفْظاً الْمَفْصُولِ مَعْنِئاً

هو نوع مهم جدير أن يفرد بالتصنيف؛ وهو أصل كبير في الوقف؛ ولهذا جعلته عقبه. وبه يحصل حل إشكالات وكشف معضلات كثيرة:

من ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ إلى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩ - ١٩٠]. فإن الآية في قصة آدم وحواء كما يفهمه السياق؛ وصرح به في حديث أخرجه أحمد [٢٠١١٧]، والترمذي - وحسنه - [٣٠٧٧] والحاكم - وصححه - [٥٤٥/٢] من طريق الحسن عن سمرّة مرفوعاً.

وأخرجه ابن أبي حاتم^(١) وغيره بسند صحيح عن ابن عباس.

لكن آخر الآية مُشْكِلٌ، حيث نسب الإشراك إلى آدم وحواء، وآدم نبيّ مكلم، والأنبياء معصومون من الشرك قبل النبوة وبعدها إجماعاً، وقد جرّ ذلك بعضهم إلى حمل الآية على غير آدم وحواء، وأنها في رجل وزوجته كانا من أهل الملوك، وتعدى إلى تعليل الحديث والحكم بِنَكَارَتِهِ.

وما زلت في وقفة من ذلك حتى رأيت ابن أبي حاتم^(٢) قال: أخبرنا أحمد بن عثمان بن حكيم: حدّثنا أحمد بن مفضل: حدّثنا أسباط، عن السدي في قوله: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] قال: هذه فضل من آية آدم، خاصة في آلهة العرب.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، سمعت صدقة بن عبد الله بن كثير المكي يحدث عن السدي قال: هذا من الموصول المفصول.

وقال ابن أبي حاتم^(٣): حدّثنا علي بن الحسين، حدّثنا محمد بن أبي حماد، حدّثنا مهران، عن سفيان، عن السدي، عن أبي مالك قال: هذه مفصلة، إطاعة في الولد ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذه لقوم محمد.

فانحلّت عني هذه العقدة، وانجلت لي هذه المعضلة، واتّضح بذلك أن آخر قصة آدم وحواء: ﴿فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾، وأن ما بعده تخلّص إلى قصة العرب، وإشراكهم الأصنام. ويوضح ذلك تغيير الضمير إلى الجمع بعد التثنية، ولو كانت الفصّة واحدة لقال: (عمّا يشركان)، كقوله: ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا... فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٨٩ - ١٩٠]. وكذلك الضمائر في قوله بعده:

(١) في «تفسيره» ١٦٣٠/٥ (٨٦٣١) الأعراف: ١٨٩.

(٢) في «تفسيره» ١٦٣٥/٥ (٨٦٦١) الأعراف: ١٩٠.

(٣) في «تفسيره» ١٦٣٥/٥ (٨٦٦٣) الأعراف: ١٩٠.

﴿أَيُّرْكُونُ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ [الأعراف: ١٩١]، وما بعده إلى آخر الآيات. وحُسْنُ التخلُّص والاستطراد من أساليب القرآن.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْأَلُكُمْ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ﴾ [آل عمران: ٧] الآية، فإنه على تقدير الوصل يكون: (الراسخون يعلمون تأويله). وعلى تقدير الفصل بخلافه.

وقد أخرج ابن أبي حاتم^(١)، عن أبي الشعثاء وأبي نَهيك، قالوا: إنكم تصلون هذه الآية وهي مقطوعة.

ويؤيد ذلك كون الآية دلت على ذم متبعي المتشابه ووضفهم بالزئج .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١]. فإن ظاهر الآية يقتضي أن القصر مشروط بالخوف، وأنه لا قُصر مع الأمن، وقد قال به لظاهر الآية جماعة؛ منهم عائشة، لكن بين سبب النزول أن هذا من الموصول المفصول. فأخرج ابن جرير^(٢) من حديث علي: سألت قوم من بني النجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾، ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحول، غزا النبي ﷺ، فصلى الظهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، هلاً شددتم عليهم. فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في أثرها. فأنزل الله بين الصلاتين: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿عَدَابًا مُهِينًا﴾، فنزلت صلاة الخوف.

فتبين بهذا الحديث أن قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ شرط فيما بعده، وهو صلاة الخوف لا في صلاة القصر، وقد قال ابن جرير: هذا تأويل في الآية حسن، لو لم تكن في الآية ﴿وَإِذَا﴾^(٣).

قال ابن الفرس: ويصح مع ﴿وَإِذَا﴾ على جعل الواو زائدة.

قلت: يعني ويكون من اعتراض الشرط على الشرط، وأحسن منه أن تجعل ﴿وَإِذَا﴾ زائدة، بناءً على قول من يجيز زيادتها.

وقال ابن الجوزي في كتابه «التفسير»^(٤): قد تأتي العرب بكلمة إلى جانب كلمة أخرى كأنها معها، وهي غير متصلة بها، وفي القرآن: ﴿رِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ﴾ [الأعراف: ١١٠]. هذا قول الملاء، فقال فرعون: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠].

ومثله: ﴿أَنَا زَوْدَةٌ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ انتهى كلامها، فقال يوسف: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ

بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥١ - ٥٢].

(١) في «تفسيره» ٥٩٩/٢ (٣٢٠٦) آل عمران: ٧.

(٢) في «تفسيره» ٢٤٣/٤ النساء: ١٠١.

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

(٤) «زاد المسير في علم التفسير» ٦٨١/٤ يوسف: ٥٢.

ومثله: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَبةَ أَهْلِهَا آذِلَّةً﴾ هذا منتهى قولها، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

ومثله: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِيًّا﴾ انتهى قول الكفار، فقالت الملائكة: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في هذه الآية قال: آية من كتاب الله أولها أهل الضلالة وآخرها أهل الهدى، قالوا: ﴿يَبُولِنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِيًّا﴾ [يس: ٥٢]، هذا قول أهل النفاق، وقال أهل الهدى حين بُعثوا من قبورهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

وأخرج^(١) عن مجاهد في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]. قال: وما يدريكم أنهم يؤمنون إذا جاءت؟ ثم استقبل يُخْبِرُ فقال: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.



(١) ابنُ أبي حاتم في «تفسيره» ١٣٦٨/٤ (٧٧٧٠) الأنعام: ١٠٩.